

حياة أحمد بن ماجد

اسمه وكنيته وألقابه، نسبه ووطنه، مولده ووفاته
زواجه ومكانه في مكة، ثقافته ولغاته

ابراهيم الخوري

عبثاً يحاول الباحث أن يعثر على نبذة عن حياة أحمد بن ماجد وأعماله في المراجع العربية الكبرى المطبوعة ، أو في ما هو معروف ومفهرس من مخطوطات جزيرة العرب العائدة الى عصره . وتذهب تحرياته أدراج الرياح ان هو سعى الى تقصي أخبار هذا الرجل العظيم في المصادر الأجنبية في البلدان المجاورة لجزيرة العرب كفارس ، أو العراق ، أو مصر، أو فلسطين ، مع أنه زار القدس ، وأرسي مراكبه في موانئ إيران وفي مرافئ البصرة والقلزم والقصير على مدى سنين طويلة .

على ان اسم أحمد بن ماجد ورد في كتابين عربيين وكتاب ثالث تركي .

فالكتاب العربي الأول هو « العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية » لسليمان بن أحمد بن سليمان المهري الذي جاء في الصفحة ١٧ منه ، س ٣ - ٤ : وأحسن القياس ما كان معتدل الخشبات أي لا كبيرة ولا صغيرة ، كما قال أحمد بن ماجد في أرجوزته (الذهبية) . وفي « العمدة » ذاتها أيضاً ، في الصفحة ١٨٨ ، حاشية ٢ ، يُقرأ اسم أحمد بن ماجد في استشهاد ببيتين من احدي أراجيزه المفقودة غير المسماة (١) . ولم يتحدد تاريخ تأليف هذه «العمدة»، لكن يرجح أنها تعود الى النصف الثاني من القرن السادس عشر أي الى ما يزيد عن نصف قرن بعد وفاة ابن ماجد .

والكتاب العربي الثاني هو «غزوات الجراكسة والأتراك في جنوب الجزيرة» ، المسمى « البرق اليماني في الفتح العثماني » ، تأليف قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي (٩١٧ هـ / ١٥١١ م - ٩٩٠ هـ / ١٥٨٢ م) ، مفتي مكة وأحد قضاتها ، المعروف بميوله التركية وبصلاته الوثيقة بالدولة العثمانية وتحزبه لها . وهذا الكتاب كتاب تاريخ ، جاء فيه عن «الفرقتال اللعين» حرفياً : «ولا يخلص من طائفتهم أحد الى بحر الهند الا ان خلس

منهم غراب الى الهند . فلا زالوا يتوسلون الى معرفة هذا البحر الى أن دلهم شخص ماهر من أهل البحر ، يقال له أحمد بن ماجد « (٢) » . وقد عنوانه النهر والي في البدء « الفتوحات العثمانية للأقطار اليمانية » ، وصنفه عام ٩٨٢ هـ / ١٥٧٤ م ، أي بعد مرور ثلاثة أرباع القرن على وفاة أحمد بن ماجد .

والكتاب التركي هو « المحيط » لأمير البحر سيدي علي بن الحسين ، المتوفى عام ٩٧٠ هـ / ١٥٦٢ م ، الذي أتم تأليف محيطه في بلدة أحمد آباد ، تحت ولاية كوجرات الهند ، في أواخر شهر محرم الحرام من شهور سنة اثنتين وستين وتسعمائة من الهجرة النبوية / آخر كانون الأول عام ١٥٥٤ م ، أو حوالي نصف قرن بعد وفاة ابن ماجد . وفيه يعلن هذا الضابط التركي صراحة أن كتابه ترجمة عن « أحمد بن ماجد » و « سليمان بن أحمد » (يقصد المهري) ، عن تصانيف كتاب الفوائد والحاوية وتحفة الفحول والعمدة والمنهاج وقلادة الشموس (٣) . ويعود المترجم فيما بعد ، فيكرر اطراءه سعة اطلاع « أحمد بن ماجد » ، ويلقبه بمعلم بحر الهند (٤) .

هذه الاشارات الثلاث الى أحمد بن ماجد في ثلاثة كتب مختلفة التواريخ ، يتيمة ، لم نجد سواها في مراجعنا ، ولا سمعنا أو اطلعنا أن غيرنا عشر على شيء آخر يضاف اليها .

لكن هذا لا يعني أن جميع السبل سدت في وجهنا ، وأصبحنا عاجزين عن ايضاح جوانب حياته ، من اسمه وكنيته وألقابه ونسبه ووطنه ومولده ووفاته وزواجه وسكنه وثقافته ولغاته وأسفاره . فمؤلفاته مليئة بالتفاصيل عن هذه النواحي التي نود الآن أن نستعرضها واحدة واحدة ، مستخلصة من شعره ونثره ، أي من تصانيفه أو من مخطوطاتها .

أولا - اسمه

لا نقصد هنا « باسمه » العلم الخاص الذي أطلق عليه وعُرف به في حياته فقط ، بل أيضاً انتماءه الى أبيه وجده الأول ثم الثاني والثالث . . . والأكبر ، تمهيداً لاستنتاج ما يجوز أو يتحتم استنتاجه من نسبه . لذلك نميز صيفاً عديدة لاسمه ، تضمنها شعره أو نثره ، أو وضعت في تصدير وجيز ، كتبه النساخ ، يسبق أراجيزه وقصائده عادة .

أ - أقصر صيغة لاسمه :

فأقصر صيغة لاسمه أشير اليه بها ، هي تسميته « أحمد » ، التي جاءت على لسانه ، في أرجوزته « السفالية » في البيت ٦٩١ ، وفي أرجوزته « المعربة » في البيت ١٧٧ ، وفي قصيدته « الذهبية » في البيتين ١٧٦ و ١٩١ ، وفي قصيدته « البليغة في قياس سهيل والرامح » في البيت ٤٧ ، وفي قصيدته « الخمسة » في الخمسة ١٦ .

ب - صيغ مختصرة لاسمه :

وتلي عدة صيغ مختصرة لاسمه أقصر صيغة له .

١ - هو ووالده :

منها صيغة « أحمد بن ماجد » ، أي هو ووالده ، التي وردت في « حاوية الاختصار في أصول علم البحار » ، في الفصل الحادي عشر في البيت ١٠٩ ، وفي متن مخطوطة تاجر لـ « كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » ، في الورقة ١٠٨ ظهر ، س ١٣ ، وفي عنواني كتاب الفوائد آياه في نسختي باريس والظاهرية المخطوطتين ، وفي تصدير أرجوزته « السفالية » وأرجوزته « الملعقية » وأرجوزته « قسمة الجمة على أنجم بنات نعش » وقصيدته « التائية » وقصيدته « ضريبة الضرائب » وقصيدته « الخمسة » .

٢ - هو ووالده وجده الأول :

ومنها صيغة « أحمد بن ماجد بن محمد » ، أي هو ووالده وجده الأول ، التي أدرجت في تصدير أرجوزته « المعربة التي عربت الخليج البربري وصحت قياسه » .

٣ - هو ووالده وجداه الأول والثاني :

ومنها صيغة « أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو » ، أي هو ووالده وجداه الأول والثاني التي اشتمل عليها تصدير أرجوزته « النتخات لبر الهند وبر العرب من جاء اثنتي عشرة الى جاء اصبع » .

٤ - هو ووالده وجده الثاني دون الأول :

ومنها أيضاً صيغة « أحمد بن ماجد بن عمرو » أي هو ووالده وجده الثاني ، التي حواها تصدير قصيدته « الملكية » وقصيدته « نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيوق » .

٥ - هو ووالده وأجداده الأول والثاني والثالث والرابع :

ومنها أخيراً صيغة « أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك » ، أي هو ووالده وأجداده الأول والثاني والثالث والرابع ، المذكورة في تصدير قصيدته « كنز المعالة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأساميها وأقطابها » .

ج - صيغ مطولة لاسمه :

ولاسمه ثلاث صيغ مطولة :

١ - أولاهها « أحمد بن ماجد بن عمرو بن فضل بن أبي الركائب » في مقدمة مخطوطة تاجر لحاوية الاختصار في أصول علم البحار .

٢ - والصيغة الثانية هي « أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن أبي الركائب » في مقدمتي المخطوطة الباريسية لحاوية الاختصار في أصول علم البحار ، ورقة ٨٩ ، س ٣ ، والمخطوطة الظاهرية لها في الورقة ١٠١ وجه ، س ٧ - ٨ .

٣ - والصيغة الثالثة أطولها ، لا ينقصها الا اسم الجد الأول « محمد » لتصبح تامة ، وهي « أحمد بن ماجد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين ، بن أبي معلق ، ابن أبي الركائب » . وقد وضعت في تصدير أرجوزته « قبلة الاسلام » .

د - الصيغة الكاملة لاسمه :

أما الصيغة الكاملة لاسمه ، حتى الجد التاسع ، فهي « أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق بن أبي الركائب » . ويعثر على هذه الصيغة في متن مخطوطة بريس لكتاب الفوائد في أصول علوم البحر والقواعد في الورقة ٣ وجه ، س ١٥ - ١٦ ، وفي متن المخطوطة الظاهرية له في الورقة ٣ وجه ، س ٢١ - ٢٣ ، وفي تصدير أرجوزته « برء العرب في خليج فارس » وقصيدته « الذهبية » . وهكذا يتفق ما ورد في أحد تصانيفه مع ما هو شائع بين الناس في الأوساط المثقفة عامة وعند النساخ خاصة . فلا مجال للشك في وجوده لأن أحداً لم يتحدث عنه في المصادر الكبرى المطبوعة . من جهة ثانية ، تنطوي صيغة اسمه الكاملة على مضمون خاص سوف نحاول استجلاءه .

هـ - ما يستخلص من اسمه الكامل :

فيه ناحيتان جديرتان بالاهتمام والابراز .

١ - الناحية الأولى أن علمي جديه الثامن والتاسع أغفلا ، واستعيض عنهما بكنيتي « أبي معلق » و « أبي الركائب » اللتين طغتا على علميهما الأصليين ، وتدلان على مهنتيهما .

والمعلق ، بكسر الميم ، قدح ضخمة أو علبة ضخمة تصنع من جلود الابل ويعلقها الراعي أو الراكب على ظهر البعير معه ، فيحلب فيها ويشرب بها ، وميزتها أنها خفيفة عندما تكون فارغة ، ولا تنكسر اذا حركها البعير الذي يحملها وهي ملائمة ، أو طاحت على الأرض . وهذا دليل على أن جده الثامن كان يملك ابلا ، ويحمل سقاء الماء على بعضها ، اشارة الى قطع الابل أماكن لا ماء فيها ، وهذا لا يحصل الا في ابل القوافل التجارية . أما الابل المرعية ، فلها أظماء أي مدد حبس عن الماء . واذا أراد صاحبها سفراً بعيداً في البادية عودها أن تشرب خمساً أو سدساً ، أي أن ترد المناهل مرة واحدة كل خمسة أيام أو ستة أيام .

والركائب جمع ركاب ، بكسر الراء ، وهي الابل التي تخرج ليجاء عليها بالطعام أو التي يسافر عليها الى مكة وتحمل عليها المحامل ، أو التي تؤجر بكراء ويحمل عليها متاع التجار وطعامهم . وهذا كلام صريح يثبت أن جده التاسع كان يمتلك ابلا يكاريتها للحجاج أو للتجار .

بالتالي ، لا يخطيء الباحث ان استنتج أن أجداد ابن ماجد أصحاب ابل حمل ، عملوا في النقل البري الى مكة أو الى عدن أو الى الشمال على الساحل ، ولعلمهم تعاطوا التجارة الى جانب النقل .

٢ - الناحية الثانية أن ماجداً ، والدأحمد ، كان راسخاً في علم البحر ، متمكناً فيه ، هو ومحمد جده الأول ووالد أبيه ماجد . وقد عظم أحمد والده ، وقال عنه في كتاب الفؤاد : « وكان الوالد - أي ماجد - ، عليه الرحمة والغفران ، يسميه الربابين ربان البرين . ونظم الأرجوزة المشهورة الحجازية فوق ألف بيت » (٥) . وذكر في مكان آخر : « وكانت أرجوزة الوالد خيراً لي من جميع ميراثه في ذلك المكان » (٦) . وروى علي لسان علي الهبي قول هذا الأخير : « سافرت عند والدك المعلم الشهر ، فريد عصره في هذا الفن ، المعلم ماجد بن محمد بن عمرو في مائة وأربعين (أي من النيروز) » (٧) . وأشار الى ظهرة قريبة من المرما وظهرته « سماها أكثر أهل ذلك الزمان ظهرة ماجد » (٨) . وأطرى علم جده أيضاً : « وقد كان جدي ، عليه الرحمة ، محققاً مدققاً ، ولم يقرأ لأحد فيه (أي في بحر القلزم ، قلزم العرب) » . لكنه جعله دون علم والده ماجد : « فزاد عليه الوالد ، رحمة الله عليه ، بالتجريب والتكرار ، ففاق علمه علم أبيه » (٩) .

اذن كان آل ماجد عريقين في النقل البري والتجارة القارية في الماضي ، وفي النقل البحري وشؤونه في وقت لاحق وفي عهد أحمد بن ماجد . فهم بالتالي ضليعون في علوم الملاحة الفلكية التي توارثوها أباً عن جد .

ثانياً - كِنَاهُ

كنى أحمد بن ماجد نفسه بكنيتين : هما « ابن ماجد » و « ابن أبي الركايب » .

أ - كنيته « ابن ماجد » :

فكنية « ابن ماجد » واردة في البيت ٢٤٧ من أرجوزته « المنتخات لبر الهند وبر العرب من جاء اثنتي عشرة لجاه اصبع » . وعنهما تفرعت أشباه كنية أخرى ، نقصد « ابن مجد » في البيت ٢٢ من قصيدته « المكية » و « نجل ماجد » في البيت ٢٩ من قصيدته القافية ، و « ماجد ابن ماجد » في البيت ٢٩ من قصيدته القافية ، و « ماجد ابن ماجد » في البيت ١٣ من قصيدته « عدة الأشهر الرومية » .

ب - كنيته « ابن أبي الركايب » :

وجاءت كنيته « ابن أبي الركايب » في البيت ١٥٤ من أرجوزته « الهادية » . وقد أبنا أهمية هذه الكنية في الفقرة السابقة . أما كنية ابن ماجد ، فعادية ، مع أننا نميل الى الظن بأنها بالنسبة له من باب الافتخار بوالده .

ثالثاً - ألقابه

لأحمد بن ماجد ألقاب كثيرة ، يشير بعضها الى تدينه وبعضها الآخر الى رسوخه في علم البحر .

آ - ألقابه الدينية :

فاللقاب الدينية هي الشهاب أو شهاب الدين وما شابهها ثم حاج الحرمين الشريفين .

١ - فقد ورد لقب « الشهاب » في حاوية الاختصار في أصول علم البحار في الفصل الحادي عشر البيت ١٠٩ ، وفي أرجوزته « السبعية » في البيت ٢٨٧ ، وفي أرجوزته « قسمة الجمة على أنجم بنات نعش » في البيت ٢٢١ ، وفي أرجوزته « الهادية » في البيت ١٥٣ ، وفي أرجوزته « بر العرب في خليج فارس » في البيت ٢٩٩ ، وفي قصيدته « الفائقة في قياس الضفدع الأول وقيد سهيل » في البيت ٥٥ ، وفي قصيدته « مواسم السفر » في البيت ١٨ .

٢ - وجاء لقب « شهاب » في أرجوزته « تصنيف قبلة الاسلام » في البيت ٢٨٨ ، وفي قصيدته الذهبية « في البيت ١٨٥ ، وفي قصيدته « ضريبة الضرائب » في البيت ١٨٤ ، وفي قصيدته « المكية » في البيت ١٦٩ ، وفي قصيدته « نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيوق » في البيت ٤٨ ، وفي تصوير قصيدته « التائية » ، وفي كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد في مخطوطة باريس .

ويلحق باللقبين السابقين ، لقب « شهاب الحق » في البيت ٢٤ من قصيدته « ميمية الأبدال » ولقب « شهاب العلم » في البيت ٧٠ من قصيدته « كنز المعالة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأساميها وأقطابها »

٣ - وتضمن متن كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد في مخطوطة باريس في الورقة ٣ ظهر ، س ١٥ ، وفي مخطوطة تاجر في الورقة ١٠٨ ظهر ، س ١٣ ، وفي مخطوطة الظاهرية في الورقة ٣ وجه ، س ٢١ ، لقب « شهاب الدين » ، الذي ورد أيضاً في تصدير أرجوزته « تصنيف قبلة الاسلام » ، وأرجوزته « النتخات لبر الهند وبر العرب من جاء اثنتي عشرة لجاء اصبع » ، وأرجوزته « العربية التي عربت الخليج البربري وصححت قياسه » ، وقصيدته « الذهبية » ، وقصيدته « ضريبة الضرائب » ، وقصيدته « المكية » وقصيدته « نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيوق » .

ويلحق بهذا اللقب ، لقب « شهاب الدنيا والدين » الوارد في عنوان النسخة الظاهرية لكتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد .

٤ - حاج الحرمين الشريفين :

وذكر لقب أحمد بن ماجد « حاج الحرمين الشريفين » ، في متن كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد في نسخة باريس في الورقة ٣ ظهر ، س ١٤ ، وفي نسخة الظاهرية في الورقة ٣ وجه ، س ٢٠ ، وفي تصدير أرجوزته « النتخات لبر الهند وبر العرب من جاء اثنتي عشرة لجاء اصبع » وأرجوزته « قسمة الجمة على أنجم بنات نعش » ، وأرجوزته « بر العرب في خليج فارس » وقصيدته « الذهبية » ، وقصيدته « التائية » ، وقصيدته « المكية » ، وقصيدته « كنز المعالة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر والنجوم والبروج وأساميها وأقطابها » .

ب - ألقابه العلمية :

ولأحمد بن ماجد ألقاب علمية كثيرة ، منها رابع الثلاثة وما بمعناها ، والرئيس
المقدم أو رئيس علم البحر أو أستاذ فن البحر ، والمعلم ، وربان الجهازين .

١ - رابع الثلاثة ، رابع الليوث ، رابع الليوث الثلاثة ، خلف الليوث .

فقد ورد لقب « رابع الثلاثة » في البيت الثاني من قصيدته « البليغة في قياس سهيل
والرامح (للثلاثة رابع) ، وفي البيت ١٦ من قصيدته « ميمية الأبدال » ، وفي متن كتاب
الفوائد في أصول علم البحر والقواعد في مخطوطة باريس في الورقة ٢ ظهر ، س ١٤ ،
وفي مخطوطة الظاهرية في الورقة ٣ ، وجه ، س ٢٠ ، وفي تصدير أرجوزته « قبلة الاسلام »
وأرجوزته « الملقية » وقصيدته « التائية » .

وجاء لقب رابع الليوث في تصدير قصيدته « كنز المعاملة وذخيرتهم في علم المجهولات في
البحر والنجوم والبروج وأسمائها وأقطابها » .

وتضمنت مخطوطة تاجر لكتاب الفوائد لقب « رابع الليوث الثلاثة » في الورقة ١٠٨
ظهر ، س ١٤ .

واشتمل تصدير أرجوزته « بر العرب في خليج فارس » وتصدير قصيدته « المكية »
على لقب « خلف الليوث » .

ويقصد بالليوث المعاملة الشجعان ، ويستعمل ابن ماجد لهم أيضاً أسود البحر
بالمعنى ذاته ، كما في البيت ٦٠ من قصيدته « ضريبة الضرائب » وفي البيتين ٥٠ و ٥١ من
قصيدته « البليغة في قياس سهيل والرامح » ، والبيت ٥٦ من قصيدته « الفائقة في قياس
الضفدع الأول وقيدده سهيل » .

ويعني بالثلاثة محمد بن شاذان وسهل بن أبان وليث بن كهلان . ويسميه « الثلاثة
رجال المشهورين ، المؤلفين لا المصنفين » (١٠) ، والمصنفين المتقدمين وثلاثة الأبحار (١١) ،
والمشايخ الثلاثة المتقدمين (١٢) . لكنه لا يعتبرهم ربابين أو معلمين ، لأنهم « لم يركبوا البحر
الا من سراف الى بر مكران » (١٣) ، وكل ما فعلوه هو أنهم جمعوا رهمانجا نثرياً جمعاً
ونقلوه عن أهل كل بر فيما يختص ببحرهم ، ولم يجربوا ما أخذوه عن غيرهم ولا تحققوا
من صحته . ويضيف : « وقد قترتهم بقولي اني رابعهم لتقدمهم في الهجرة فقط » (١٤) ،
أي لجيئهم قبله تاريخياً . أما من الناحية العلمية ، فلا يراعي شعورهم اطلاقاً ، ويقول :
« وأنا ألقت واخترعت وفعلت وعملت وجربت وصححت وهديت به المسافرين .
وتصنيفنا خير من تصانيفهم ، وعلمنا خير من علمهم » (١٥) ، أو « وجللنا قدرهم ، رحمة
الله عليهم بقولي : اني رابع الثلاثة وربما في العلم الذي اخترعناه في البحر ، ورقة
واحدة تقوم ، في الصحة والبلاغة والفائدة والهداية والدلالة ، بأكثر مما صنّفوه » (١٦) .

٢ - الرئيس المقدم أو رئيس علم البحر أو أستاذ فن البحر .

ويعرف أحمد بن ماجد نفسه بأنه « الرئيس المقدم » في البيت الثاني من قصيدته « ميمية الأبدال » ، ويعود ذكر « الرئيس المقدم » في الخمسة الأولى من قصيدته « الخمسة » ، ويحدد الشروط التي يجب أن تتوفر فيه . وقيل عنه انه « رئيس علم البحر وأستاذ فن البحر » في عنوان كتاب الفوائد في مخطوطة باريس .

والرئيس المقدم لا سلطة فوق سلطته ، يأتمر الربان بأمره وحتى الناخوذة ، والكلمة الأخيرة له في جميع شؤون الملاحة .

٣ - المعلم أو معلم البحر الزخار :

وعرف أحمد بن ماجد بين الربايين والنساخ بأنه المعلم ، مثلما جاء في تصدير أرجوزته « تصنيف قبلة الاسلام » وأرجوزته « المعربة عربت الخليج البربري وصحت قياسه » وقصيدته « ضريبة الضرائب » ، وقصيدته « نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيوق » وقصيدته « الخمسة » . وسماه عنوان حاوية الاختصار في أصول علم البحار « المعلم أسد البحر الزخار » .

٤ - ربان الجهازين :

وجاء في البيت العاشر من قصيدته « الفائقة في قياس الضفدع الأول وقيده سهيل » أنه « ربان الجهازين » . والمقصود بالجهازين : آلة اليد أي حطبات أو خشبات القياس بالأصابع ، والاسطرلاب في القياس بالدرجات .

رابعاً - نسبه ووطنه

حدد أحمد بن ماجد نسبه بجلاء تام في شعره ونثره ، وعرف فيهما بوطنه بلا لبس أيضاً . وتتضح هاتان الناحيتان من كلامه تصريحاً أو تلميحاً .

أ - نسب أحمد بن ماجد :

١ - فهو عربي معقلي .

وجاء ذلك في حاوية الاختصار في أصول علم البحار في الفصل الحادي عشر في البيت ١٠٩ . والمعقلي نسبة الى معقل . فاما أن يكون الشخص المقصود معقل بن يسار من الصحابة ، وهو من مزينة مضر ، واما معقل بن سنان من أشجع ، وهو الأرجح لأن أشجع قبيلة من غطفان ، وغطفان حي من قيس عيلان : غطفان بن سعد بن قيس عيلان .

٢ - وهو سعدي :

وقد أكد هذه النسبة في أرجوزته السفالية في البيت ٦٩١ منها ، وفي قصيدته « الذهبية » في البيت ١٩١ ، وفي قصيدته « المكية » في البيت ١٦٩ ، وفي قصيدته « نادرة الأبدال في الواقع وذبان العيوق » في البيت ٣٩ ، وفي عنوان كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد في مخطوطة باريس ، وفي متن هذا الكتاب ، ص ١٠ ، س ٦ ، وفي تصدير أرجوزته

« قبلة الاسلام » وأرجوزته « النتخات لبرالهند وبر العرب من جاء اثنتي عشرة لجاء اصبع » .

والسعدي نسبة الى قبيلة بني سعد . الا أن السعود كثيرة في قبائل العرب . فكان لا بد أن يوضح أحمد بن ماجد سعداً المقصودة ، فقال في قصيدته « عدة الأشهر الرومية ، البيت ١٣ ، أنه « يؤول الى سعد بن قيس بن عيلان » . وتكرر هذا التعبير بالذات في تصدير قصيدته « ضريبة الضرائب » . وقيس عيلان أبو قبيلة من مضر ، واسمه الناس بن مضر بن نزار ، وليس في العرب عيلان غيره .

٣ - وهو عامري . . . عدناني

ويشير الى انتمائه الى قبيلة عامر فمعدعدنانان في قصيدته « المكية » في البيت ٢٢ منها . وعامر هذا هو عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان . وبذا تصبح نسبته الى عامر مثل نسبته الى سعد بن قيس عيلان ، لكن عن جد آخر .

٤ - وهو مادري :

وقد ورد هذا العزاء الى مادر في قصيدته « المكية » أيضاً في البيت ١٦ منها . ومادر هذا جد بني هلال بن عامر بن صعصعة . فلا فرق اذن بين هذه النسبة الجديدة وبين النسبات السابقة الا في اختيار الجد .

٥ - نسب أحمد بن ماجد الكامل ومايستخلص منه :

مما تقدم يستطيع الباحث أن يستخلص صيغة مختصرة لنسب أحمد بن ماجد شبه الكامل على الوجه التالي : أحمد بن ماجد . . . بن مادر بن هلال بن صعصعة بن عامر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن حفصة بن قيس عيلان أي الناس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهذا يعني أنه ينتسب الى القبائل العدنانية المقيمة في تهامة ونجد والحجاز ، اجمالاً ، مع أن بعضها مثل هوازن نازلة في اليمن . وكذلك سعد قيس عيلان . اذن أحمد بن ماجد يمني استناداً الى نسبه . وتؤيد أقواله هذا الاستنتاج عندما يتحدث عن انتمائه الأرضي .

ب - انتماء أحمد بن ماجد الأرضي :

يقول أحمد بن ماجد بوضوح تام انه نجدي ، ويصر على الحاق هذه النسبة باسمه ، فيذكرها في ص ٦ ، س ٩ من مقدمة حاويته النثرية ، وفي ص ١٠ ، س ٦ من متن كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد .

ويستبعد نصاه السابقان كلياً أن يكون من تهامة أو الحجاز أو أي مكان آخر ويحتمل قبول نجد موطناً له . بقي أن تتحدد نجد المقصودة وأن يعرف أي نجد اليمن أم نجد الحجاز في السعودية . ويتولى ابن ماجد نفسه ازالة الالتباس ، ويقطع بأنه يعني نجد اليمن .

ففي كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، يتغنى ببيت الشعر التالي :

تهامة مشتانا ونجد مصيفنا ونجران وادينا الذي نتخرف

ويشرحه فيقول : « فالمراد بنجد هنا صعدة وما يليها • ونجران شرقها • وسد مأرب شاميتها للشرق • والجوف بقربه • والرابع الخالي فهو على مشارق الجميع » (١٧) • ويستتبع هذا الشرح أن نجداً مرادفة لصعدة في ذهنه • بالتالي ، عندما يقول انه نجدى ، يقصد أنه من نجد اليمن ومن مدينة صعدة بالذات • اذن هو يمني ، كما مر في نسبه •

ويستعيد ابن ماجد بعض ذكرياته عن وقوفه على جبال صعدة ، وهو يتأمل بحر اليمن ، ويصف ما يراه ، فيقول : « وأما أمنة وبناتها (جزر خالية في البحر الأحمر) ، فيراهن الناظر من جبال صعدة » (١٨) •

ج - تأييد المؤرخين والجغرافيين لشرح ابن ماجد :

ولا يختلف مدلول نجد عند المؤرخين والجغرافيين عن مدلولها عند أحمد بن ماجد • فنجد ، في مفهوم مؤرخي اليمن ، صعدة ومنطقتها •

فالخزرجي يقول : « وفي سنة اثنتين وخمسين سار الأمير أسد الدين محمد بن الحسن بن علي بن رسول ، والأمير شمس الدين أحمد بن الامام المنصور عبدالله بن حمزة ، والعساكر المظفرية الى مدينة صعدة ٠٠٠ ثم فتحت صعدة ٠٠٠ ورتبا في صعدة الأمير عز الدين محمد بن الأمير شمس الدين أحمد بن الامام وهبة بن الفضل ، ورجع الأميران الى صنعاء • وفي ذلك يقول الأمير عز الدين عزان بن سعيد بن نسر بن حاتم على لسان الأمير شمس الدين أحمد بن الامام ، ممتدحاً السلطان الملك المظفر :

سلام مشوق وده ما تصرما يزورك من نجد وان كنت متهماً (١٩)

فالقصيدة نظمت في صعدة وأرسلت منها الى تهامة ، لكن جاء فيها « يزورك من نجد » ، أي ان نجداً أو صعدة مترادفتان في عرف أهل اليمن ومؤرخيها • وبذا يجيء التطابق تاماً مع ما قاله ابن ماجد في شرحه •

وجاء ما يلي في ترجمة الفقيه أبي عبدالله محمد بن الحسن بن عبدويه المهرباني في تاريخ ثغر عدن : « ولما استقر الفقيه بكمران ، وشاع علمه ، قصده الناس من نجد اليمن وتهامته » (٢٠) •

وقال المقدسي البشاري في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » عن اليمن ما يلي : « وأما اليمن فقسمان : ما كان نحو البحر ، فهو غور وأسمه تهامة وقصبتها زبيد ٠٠٠ وأما ما كان من ناحية الجبال ، فهو بلاد باردة ، تسمى نجداً ، قصبتها صنعاء ومن مدنها صعدة » (٢١) •

ويميز صاحب تقويم البلدان نجد الحجاز عن نجد اليمن ، ويقول : « ومنها – أي ديار العرب – نجد الحجاز المتصل بأرض البحرين • ومنها بادية العراق وبادية الجزيرة • ومنها بادية الشام. ومنها اليمن المشتمل على تهامة ونجد اليمن وعُمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن • فما كان من حد السرين الى أن ينتهي الى ناحية يللملم وظهر الطائف ممتداً الى نجد اليمن الى بحر فارس مشرقاً ، فهو من اليمن » (٢٢) •

وهكذا يلتقي الجغرافيون العرب ومؤرخو اليمن على مفهوم نجد اليمن وصعدة • ولا بد لنا أن نفهم أن ابن ماجد ، عندما يقول بأنه نجد ، يقصد نجد اليمن وصعدة بالذات ، لأن نجد اليمن وصعدة مترادفتان في ذهنه وفي الأعراف التاريخية والجغرافية •

من ناحية أخرى ، نجد أن أحمد بن ماجد يعرف بدقة أقسام اليمن الجغرافية كما سبق وأبنا ، ويقارن فيما يلي خصبه بقحط الحجاز : « الحجاز ممحلة قليلة الطعام وعلى جانبيها اليمن الأخضر الذي لا ينقطع منه المطر من العام الى العام ، يخرف خريف الحبشة والهند ، وفي الشتاء يلحقه مطر بر العرب • فهو دائم الأزمان فيه الرخاء ، والحجاز دائم الأزمان فيها المحل ، لأن مطر الشتاء لا يلحقها منه الا القليل ، ومطر الحبشة بريح الكوس لم يأتيها من غلظ الحبشة » (٢٣) • وهو يحن أيضاً الى اليمن ، ويعبّر عن عواطفه في البيت الآتي :

وموسمها سبعون من بعد مائة الى اليمن الفيحاء أرض الأحبة (٢٤)

وما ذلك الا لأنه من نجد اليمن ومن صميم صعدة •

وتتنافى حججنا وتحليلنا مع اتجاه المستشرقين وبعض الباحثين العرب الذين تبينوا أقوالهم ولا سيما أقوال علي بن حسين وغبريل فران على علاقتها رغم سهولة ردها •

د – تفنيد أقوال علي بن حسين وغبريل فران :

وكان أمير البحر سيدي علي بن حسين قد ذكر في محيطه أن أحمد بن ماجد من جلفار في عُمان (٢٥) • ولم يقدم حجة واحدة تثبت صحة زعمه ولا أشار مطلقاً الى المصدر الذي استقى منه النبأ •

ولم يناقش غبريل فران خبر القائد التركي ، بل قبله بلا تمحيص ، وظن أنه وجد ما يؤيده في البيت ٨٥ من الفصل الحادي عشر من حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، وهو هذا :

تمت بشهر الحج في جلفار أوطان أسد البحر في الأقطار (٢٦)

وقد فات أمران المستشرق الفرنسي في هذا البيت ، فضل وضلل :

١ - أولهما أنه قرأ « أسد » في الشطر الثاني ، وهي بضم الهمزة وتسكين السين ، قرأها بفتح الهمزة وتسكين السين للضرورة الشعرية ، ليجعل اللفظ مفرداً ويعني به ابن ماجد (أسد البحر = ابن ماجد) ، كما وضع بين قوسين في الصفحة ٢٠٦ ، س ٢٩ من كتابه

« الارشادات الملاحية والرهانجات العربية والبرتغالية ، المجلد الثالث ، مدخل الى الملاحة الفلكية العربية » .

٢ - وثانيهما أنه فهم « أوطان » بمعناها الحديث، في حين ينبغي أن يتقيد باستعمالها الأصلي في القرن الخامس عشر : فقد جاء في لسان العرب : الوطن المنزل تقيم به ، أي بيت الإقامة الموقتة ، لا البناء الذي يملكه الانسان ويسكنه على الدوام . ولو كلف فران نفسه عناء الرجوع الى قصيدة ابن ماجد « البليغة في قياس سهيل والرامح » ، لوجد الفكرة ذاتها مكررة ومشروحة في الأبيات ٤٩ - ٥٢ منها ، وهي التالية :

رعى الله جلفار ومن قد نشأ بها	وأسقى ثراها واكفا متتابع
بها من أسود البحر كل مجرب	وفارس بحر للشدائد بارع
يسرك في الأوصاف ان وصفت له	حذور جسور في المهمات شاجع
إذا قام في شيء يرجى كماله	يقوم ولم يمنعه عن ذاك مانع

كذلك استشهد غبريل فران بالمراجع البرتغالية مثل باروس ، وألبوكيركي ، ورهمانج فاسكودا غاما ، وحوليات دامياو ، وخاصة كتاب دوارتيه باربوسا (٢٧) . والعجيب أنه عاد الى دوارتيه باربوسا لشرح معنى تعبير « المعلم الفلكي » (ماليمو كاناكوا)، لكنه لم يحاول أن يستفيد من هذا الكتاب بالذات ليعرف معنى بيت ابن ماجد ، لأن المؤرخ البرتغالي قال حرفياً عن جلفار : « فمتى تجاوزنا بلدة بروفام ، نصل الى بلدة أخرى تدعى جلفار ، يقيم فيها أثرياء ومشاهير المعالة وكبار تجار الجملة . وفيها مصائد سمك هامة جداً وأماكن غوص لصيد اللؤلؤ الصغير والكبير ، واليها يأتي مسلمو هرموز ، ليشتروا اللؤلؤ وينقلوه الى الهند والى بلدان أخرى » (٢٨) .

خامساً - مولده ووفاته

عثر على اسم أحمد بن ماجد في مرجعين عربيين وفي مرجع واحد تركي . وهذا ما ذكرناه من قبل . لكن لا تحوي هذه المؤلفات أي شيء آخر عنه . بالمقابل ، تتضمن تصانيفه ومخطوطاتها تواريخ أحداث وتواريخ نظم شعر ووصف حالته الصحية أو الذهنية وتفاصيل أخرى متنوعة عن حياته ، يصح الوثوق بها واعتمادها أساساً لمعرفة سنّه ثم تحديده على وجه الدقة الممكنة بتعيين تاريخ ولادته وتاريخ وفاته .

أ - سن أحمد بن ماجد :

ويهم الباحث كثيراً أن يعرف هل طالع عمر ابن ماجد وكم طالع ، لعلاقة هذا الموضوع المباشرة باتصاله المزعوم بفاسكو داغاما . ويوفر هو نفسه عناء الاستقصاء، ويجيب على هذا التساؤل ويتأيد قوله بحجج حاسمة .

١ - فقد نظم قصيدته ضريبة الضرائب عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، واستهلها بالبيتين التاليين :

شباب برأسي أعجب الناس من أمري أتاني عقوب الشيب في آخر العمر
وأي شباب بعد ستين حجة سما في السما فوق السماكين والنسر

ويقصد بالبيت الأول : أن الناس أصيبت بالذهول لأن شعره بقي أسود رغم تقدمه الكبير في السن ولم يشب الا في آخر عمره . وهذا يعني أنه كان ، في عام ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، تحت رهبة الموت ويشعر بدنو أجله . ويأسف في البيت الثاني لذكر لفظ « شباب » لأن شبابه ، بعد أن تجاوز كثيراً الستين عاماً ، أصبح بعيداً جداً عنه بعد السماكين الأعزل والرامح والنسر الواقع عن الأرض . وهذا تأكيد أيضاً على أنه وصل الى أقصى الكبر .

وفي العام ذاته ، أي ٩٠٠ هـ / ١٤٩٤ م ، نظم قصيدته قسمة الجمة على أنجم بنات نعش ، التي يقول فيها في البيت ٢٠٣

لأنني قد كنت أيام الصبا هممت فيها فأتنتي أشياء

والأشيب المبيض الرأس . اذن لم يعد في رأسه شعرة واحدة سوداء في عام ٩٠٠ هـ . وهذه اشارة واضحة الى طعنه في السن . ويعود في الشطر الثاني من البيت ٢١٤ من القصيدة ذاتها ، فيكرر احساسه بقرب منيته ، فيقول : « خوفي أموت قبل أن تحررا » . ويوصي باصلاحها بعد مماته . وتعني هذه الوصية انتهاء عهد الاعتداد بالنفس عنده وبداية شكه في قدرته لأنه لم يعد يسافر بل يستطيع السفر ، ليختبر ويجرب ويدون كما كان يفعل طيلة حياته . وقد عبّر عن الفكرة ذاتها في قصيدة ضريبة الضرائب ، فقال في بيتها ٤٣ :

وزدهن بالتجريب مهما استطعته مخافتنا أن لا يساعدنا عمري

ولم تراوده هذه الرؤى الكئيبة فجاءة ، بل مرت بخلدّه خمسة أعوام قبل أن ينظم قصيدته السابقتين . ففي عام ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م ، صنف القصيدة المكية ، وقال في بيتها ١٥١ :

وصفت لكم تجريب خمسين حجة فشين قلبي لا تقل شاب ظاهري

فالقلب هنا يعبر عن العقل ، اذ يقال في العربية : ما قلبك معك ، وأين ذهب قلبك؟ أي ما عقلك معك وأين ذهب عقلك؟ والظاهر الرأس ، من ظاهر كل شيء أعلاه ، وظاهر الانسان رأسه . ويفيد فعل « شين » تغيير لون الشعر من أسود الى أبيض فيما يتعلق بالرأس ، وهو المعنى الحقيقي ، أما فيما يتعلق بالعقل ، فالمعنى المجازي مقصود ، أي تحول التمييز من سديد الى ضعيف . وبذا يصبح معنى البيت : في عام ٨٩٥ هـ ، كان ابن ماجد قد أمضى خمسين سنة في البحر مسؤولاً عن المراكب ، يطبق فيها مبادئ علم

الملاحه الفلكية ، فلم تقتصر هذه المدة الطويلة على انهاك قواه الجسدية - بدليل الشيب - بل أضعفت قواه العقلية أي حسن تمييزه للأمور .

ويستدل من جميع هذه الأقوال ، الواردة على لسان ابن ماجد عن أوضاعه ، أنه امتنع عن ممارسة مهنته منذ عام ٨٩٥ هـ ، وأقام اما في بيته في مكة أو في بيت أهله أو بيت ثان له في صعدة ، وكان لا يزال حياً ومعتزلاً بالعمل في عام ٩٠٠ هـ .

وهكذا نرى أن ابن ماجد أشرف على الموت أو كاد في نهاية القرن التاسع الهجري وقبل نهاية القرن الخامس عشر الميلادي . فماذا عنه في النصف الأول من القرن التاسع الهجري ؟

٢ - اذا عدنا مرة أخرى الى تصانيفه ، وجدنا بيتاً واحداً في حاوية الاختصار في أصول علم البحار يتعلق بهذه الفترة : وهو البيت ٧٦ من الفصل الحادي عشر منها : أي

قد راح عمري في المطالعات وكثرة التسال في الجهات

وهذا يعني أنه أمضى سني عمره قبل تاريخ الحاوية ، أي قبل عام ٨٦٦ هـ / ١٤٦١ م يقرأ ويركب البحر . وهذا القول لا يسمن ولا يغفر صراحة ، لكنه لا يخلو من المعلومات غير المباشرة عن الفترة الأولى من حياة ابن ماجد ، اذا أحسن تفسيره على ضوء ما يقصده بتعبير « الجهات » ، شريطة أن ينطبق التفسير مع ما ورد في حاويته . ف « الجهات » هنا سواحل بحر الهند ، وكثرة التسال في « الجهات » تعني الاستخبار المتواصل عن أصول الملاحه في تلك الأسفار الى شتى البلدان . فاذا علمنا أن أسفاره البحرية قادته الى افريقية الشرقية وفارس والسند والهند وبلدان تحت الريح حتى بندر ملاقة ، واذا علمنا أيضاً أنه تحدث عنها جميعاً بشيء من التفصيل ، وأورد آراء معالمتها في الملاحه ، حق لنا أن نتساءل لماذا لم يتكلم عن الصين بالدقة ذاتها (٢٩) ، ولماذا لم يتطرق الى الملاحه الصينية لا من قريب ولا من بعيد ، واكتفى بالتصريح بأنه لم يستطع ضبط قياس الصين من معاملة مجربين (٣٠) ، وبأنه لا يعرف شيئاً عن شكل الشراع الصيني (٣١) . ويتحول تساؤلنا الى استغراب ، عندما تعود الى ذاكرتنا الحملات الصينية السبع التي جاءت الى « المحيط الغربي » أي الهندي بين عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م وبين عام ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م ، بسفنها الألف الضخمة ، لا سيما وان الحملات الثلاث الأخيرة (٣٢) منها وصلت الى ظفار والمكلا وعدن وجدة ، وزار سبعة سفراء من الرحلة السابعة جدة ومكة عام ٨٣٦ هـ / ١٤٣٢ م (٣٣) ، وقدموا الهدايا الى أمير مكة بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة الحسني ، الذي أرسل بدوره هدايا الى امبراطور الصين .

فهل نستنتج من اغفاله الصينيين أنه لم يكن يعرف شيئاً عنهم ، أم أنه كان لا يزال حدثاً أو لم يولد بعد ؟ نظن أن افتراض الجهل عند ابن ماجد مرفوض رفضاً باتاً لأن سعة اطلاعه ثابتة في تصانيفه ولا تحتاج الى اثبات . فلم يبق أمامنا الا الحالة الثانية ، وهي اما أنه لم يكن قد رأى النور أو أنه كان لا يزال حدثاً ، بالتالي بعيداً عن البحر وركوبه وشؤونه ، فلا يعقل في هذه الشروط أن يسمع أخبار الأساطيل الصينية أو يشاهد سفنها .

وهكذا لا بد لنا أن نسلم بأن أحمد بن ماجد عاش من الثلث الأول من القرن التاسع الهجري إلى آخره . وبوسعنا الآن أن نحاول تحديد تاريخ ولادته وتاريخ وفاته .
ب - تاريخ ولادة أحمد بن ماجد :

لكن يتعذر علينا تحديد ولادته بدقة . أما حسابه على وجه التقريب فممكّن .

١ - أحمد بن ماجد معلم ماهر منذ سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م :

ففي عام ٨٤٥ هـ ، وصل ابن ماجد إلى مستوى المعلم الماهر الأمر النهائي في مركبه . ويستخلص هذا الوضع من قصيدته الذهبية التي نظمها سنة ٨٩٥ هـ / ١٤٨٩ م ، وجاء في بيتها التاسع ما يلي :

ومن بات يرعاهن خمسين حجة على طلب عاف الكرى في الغياهب

ويفيد هذا البيت أنه شرع يراقب النجوم وقيسها منذ خمسين عاماً (٨٩٥ - ٥٠ = ٨٤٥) ، أي منذ عام ٨٤٥ هـ . لكنه لا يسعه أن يقيسها إلا إذا ميز بعضها عن بعض ، وعرف أماكن طلوعها وغروبها وظهورها ومدته ، وأتقن استعمال آلات قياسها ، وأجرى قياساتها في شتى الرؤوس ، أي إلا إذا أصبح قديراً في الملاحة الفلكية ، أو علم البحر وتطبيق علم الهيئة عليه ، بالتالي إذا صار معلماً ماهراً واكتسب جميع الخبرات اللازمة .

ويكرر خبرة مدة الخمسين سنة مرتين آخرين . فيقول في البيت ١٥١ من القصيدة المكية انه ضمنها « تجريب خمسين سنة » ، ويقول في مختصر كتاب الفوائد أيضاً : « ما صنعت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي خمسون سنة وما تركت صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامه » (٣٤) . فلا يكتفي بقياس النجوم وتحديد الطريق في البحر ، بل يريد أن يثبت أن صاحب السكان يجري السفينة في الاتجاه الصحيح المطلوب . فهو الأمر النهائي في جميع الأمور .

اذن تحمل ابن ماجد منذ عام ٨٤٥ هـ أعباءً جساماً ، لا تلقى عادة على عاتق حديثي السن ، ولا يتولاها إلا الرجال . وهذا يستتبع أن يكون ابن ماجد الرجل ولد حتماً قبل انتهاء الحملة الصينية السابعة ، أي قبل عام ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م لأن عشرة أعوام (٨٤٥ - ٨٣٥) لا تجعل منه رجلاً .

٢ - أحمد بن ماجد موجود قبل عام ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م :

فلو عدنا إلى الحدث الصيني العظيم ، لاستنتجنا منه أن ابن ماجد لم يسافر في بحر الهند قبل عام ٨٣٥ هـ .

بالفعل ظل الصينيون ثلاثين سنة متواصلة (٨٠٥ هـ - ٨٣٥ هـ) ينتقلون بين بنادر بر الهند وبر العرب وبر الصومال وبر الزنج ، ويسلمون حكامها وأصحاب السلطة فيها رسائل امبراطورهم وهداياهم ، ويتلقون منهم رسائلهم وهداياهم له . وهذا يعني أنهم كانوا يترددون على مرافق لا تغلو أبداً من السفن العربية أو المراكب التي تقصد

الموانئ العربية فلا بد والحالة هذه أن يراهم البحارة العرب وغير العرب وأن يشاهدوا سفنهم الجبارة ، ويتناقلوا أخبارهم ، ويتبادلوا الأحاديث عنهم في جميع أنحاء بحر العرب ، أو حوضه المحيط الهندي الغربية .

ولا يمكن أن يخفى مثل هذا الحدث الخطير على أحد لأنه دام ربع قرن ونيفاً ، وزار الصينيون فيه البنادر العربية مرات عديدة وخاصة عدن ، وذهبوا الى مكة بالذات . بالتالي انتشرت أخبارهم في اليمن والحجاز ، أو ، وهذا أضعف الاحتمالات ، في الأوساط الحاكمة وأوساط أهل البحر والتجار فقد .

ولو كان أحمد بن ماجد يمتخر عباب بحر الهند ، لما فاته الاطلاع على الخبر الفريد ، ولذكر واقعه جرياً على عادته في الإشارة الى الأحداث التاريخية الهامة الخاصة باليمن أو الحجاز أو مصر في تصانيفه . لكن لانقصد أنه كان بعيداً عن الملاحية في جميع البحار . فكلماه يفيد خلاف ذلك .

وإذا عدنا الى أخباره عن جده الأول وأبيه ، أدركنا أنه كان يصحب والده في أسفاره في بحر قلزم العرب ، ثم استقل عنه .

بالفعل ينبئنا أن جده محمداً أول من قام بإجراء قياسات نجوم في هذا البحر ، ثم حققها ودققها مع مرور الأيام ، وخلّفها في النهاية لابنه ماجد . وكرر ماجد بعده هذه القياسات ، وأعاد التحقيق والتدقيق فيها ، ثم نقلها بدوره الى ابنه أحمد . وأمضى أحمد ، بأقراره الصريح ، أربعين سنة وهو يعيد أعمال والده ماجد وجده محمد ، فحررها وحقّقها ودققها وأصلح أخطاءها وأتم نواقصها (٣٥) . ويتضح من هذه الأقوال الموثوقة ، رغم تسمية ماجد ربان البرين أي بر العرب و بر الهند ، أن آل ماجد اختصوا أصلاً بالملاحية في بحر القلزم ، وأن أحمد بالذات تدرب فيه عند والده ، قبل أن يصير رجلاً ومعلماً ماهراً وينطلق الى بحر الهند ويصول ويجول في هذا المحيط بعد رحيل الصينيين عنه . فلاغربة اذن في عدم اطلاعه على الحملات الصينية لأنه كان آنذاك لا يزال في بحر القلزم بعيداً عن نطاق نشاطهم . بالتالي كان حياً في الثلث الأول من القرن التاسع الهجري ، أي في الثلث الأول من القرن الخامس عشر الميلادي . بقي أن نحدد متى ولد بالدقة المتيسرة .

٣ - أحمد بن ماجد مولود سنة ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م :

فلو افترضنا أن أحمد بن ماجد نزل الى البحر في سن الخامسة عشرة أو ما دونها قليلاً ، نعني عندما اجتمعت له قوة جسدية كافية لكي يقوم ببعض الأعمال في المركب ، وتوفرت له قوة ادراك وتمييز يفهم بها أحوال البحر وشؤون الفلك الملاحي ويحفظها ، وأن تدريبه وبلوغ خبرته مستوى خبرة المعلم استغرق خمسة أعوام أو مايقرب منها فقط لأنه متعلم ، لحصلنا على عمره في سنة ٨٤٥ هـ : ١٥ + ٥ = ٢٠ عاماً في أضعف الاحتمالات . ويستخرج تاريخ ولادته بطرح الرقم ٢٠ من سنة ٨٤٥ : ٨٤٥ - ٢٠ = ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م .

ونرى أن هذه النتيجة قريبة جداً من الواقع ، وتتوافق مع ما جاء في قصيدتيه
ضريبة الضرايب وقسمة الجمة على أنجم بنات نعش اللتين نظمهما عام ٩٠٠ هـ . فقد
ورد فيهما أنه أصبح أشيب ، لا سواد في رأسه ، وأنه أشرف على « آخر عمره » وأنه
يخشى أن يتوفاه الله قبل انهما . ويقضي هذا الوصف أن يكون عمره آنذاك في حال
صحة حسابنا : ٧٥ سنة (٩٠٠ - ٨٢٥ = ٧٥) . وفي هذه السن يكون قد تجاوز الستين
كثيراً وفقاً لما تضمن بيتا مطلع قصيدة ضريبة الضرائب .

ج - تاريخ وفاة أحمد بن ماجد ٩٠٦ هـ / ١٥٠٠ م :

وتثبت هذه السن أي الخامسة والسبعون ذو أجل أحمد بن ماجد ، مثلما ورد على
لسانه ، وتفيد أقواله في سنة ٨٩٥ هـ أنه لم يعد يركب البحر لضعف بنيته الجسدية
وقدرته على التمييز . فلا شك إذن أنه اعتكف بعدها في بيته ينتظر لقاء وجه ربه . مع ذلك
في عام ٩٠٦ هـ ، كتب قصيدته القصيرة الخمسة التي ألح فيها على ضرورة التصرف
بحكمة في البحر ، ولم يأت فيها بشيء جديد لم يسبق له أن تحدث عنه مراراً وجملة
وتفصيلاً . وكان قد بلغ الحادية والثمانين في تاريخها ، وانقطعت أخباره تماماً . ونحن
نعتقد أنه توفي في هذه السنة بالذات .

سادساً - زواجه ومنزله في مكة

مرة أخرى ، لا غنى للباحث عن تصانيف أحمد بن ماجد ، إذا أراد إيضاح بعض نواحي
حياته الخاصة ، ولا سيما زواجه وبيته في مكة . والنص الوحيد المعول عليه في هذا
الشأن ، هو مطلع القصيدة المكية من البيت الأول حتى البيت الثاني والعشرين .

أ - زوج أحمد بن ماجد عامرية ثقفية :

ويخبرنا البيت العاشر من هذا الاستهلال أنه متزوج :

تزوجتها ونا قليل اقامتي وذا يقتضي حال المحب المسافر

ويحدد الشطر الثاني من البيت الرابع عشر نسبها بدقة ، حيث جاء فيه :

سقى الله أهلها ثقيفاً وعامراً

الا أن ثقيفاً وعامراً (عامر بن صعصعة) وسعداً أحياء من هوازن من قيس عيلان . إذن
زوجه من عشيرته الأقربين : فهي ثقفية عامرية هوازنية قيسية عدنانية ، مثله تماماً .

ب - زوج أحمد بن ماجد مقيمة في مكة :

وتقيم في مكة ، على حد قوله في البيت السابع عشر :

وسرت بقلب كاد يقضي تأسفاً وزودت من سكان مكة ناظري

ويتردد عليها في أوقات متباعدة جداً ، ويبقى عندها وقتاً قصيراً لأنه دائم الأسفار في البحر . فإذا أراد زيارتها ، جاء إلى جدة ، وأبقى مركبه في بندرها ، وانتقل منها إلى مكة في إحدى القوافل التي تسلك طريق الركابي - بير علي - الفار ، وتصل إليها بعد مرور ثلاث ليالي . ولا ينفي وجود هذه الزوج في مكة وجود أزواج أخريات في صعدة أو غيرها من الأماكن لأن الشرع أجاز له ذلك . لكنه لم يتحدث إلا عن امرأته العامرية ، ووصفها وحدها .

ج - ولوعه بزوجه العامرية ووصفه لها :

وقال عنها انها بيضاء تأكيداً على شرفها الرفيع وكرمها وأخلاقها العالية : وهذا ما لوف عند العرب ، كثير في شعرهم . فلا يراد بالمرأة البيضاء بياض بشرتها ولونها ، بل مدح أخلاقها والاشادة بكرمها ونقاء عرضها من الدنس والعيوب . وذكر جمالها ، فأثنى على بدانتها وعرض كتفيها وعظم أردافها . ولم يفته أن يتكلم عن فرحة اللقاء ومرارة الفراق :

فلا حضرة الا وفيها تودع ولا نظرة الا وفيها مواطر
مخافة وشك البين يوم رحيلنا بغير وداع وانكسار خواطر (٣٦)

سابعاً - ثقافته ولغاته

كان ربابنة اليمن أميين في القرن الخامس عشر ، ما عدا القلة القليلة منهم . وأحمد بن ماجد واحد من هذه النخبة التي تعرف القراءة والكتابة ، لكنه بذها بمعارفه اللغوية والفلكية وثقافته العامة ، وفهمه بعض اللغات الأجنبية .

آ - لغة أحمد بن ماجد العربية :

فلا ريب أنه أول من دوّن فن الملاحة وعلمها بلغة عربية فصحي شعراً ونشراً ، أغناها بمصطلحات جديدة وشق طريقاً يمكن اتباعها ، وأثبت قدرة العربية على التطور والتكيف مع المقتضيات الطارئة . إلا أن اللغة التي كتب بها لم تصلنا سليمة ، لأن النساخ لم يالفوا كتابة مبادئ علم البحر ، فجاءت مخطوطات الملاحة مشوهة ، يصعب تقويمها بالتمام والكمال ، اذا لم تكتشف لها نسخ أوفر عدداً مما هو معروف منها عند الباحثين .

وتميز أسلوبه بالدقة في معاني الألفاظ ، والابتعاد عن اللغو والحشو في العرض ، وتكثيف الحقائق العلمية المبحوثة وهو القائل في حاويته في البيتين ٧٤ ، ٧٥ من فصلها الحادي عشر :

فلو أرد تطويل كل فن لم تطق النساخ تنسخ عني
قصدي الأصول في علوم البحر لا قصدي الهرج وكثر الشعر

مع ذلك يحوي نشره الملاحي قضايا عويصة ، ويعيب شعره ضعف في السبك والأوزان وتماديه في استعمال الجوازات المستقبحة أو غير الموجودة أصلاً ، وبعض الأخطاء النحوية . ويعترف هو بالذات بجميع عيوبه ، ويحذر من أخطاء النساخ . من ذلك قوله في البلغة (الأبيات ٥٣ - ٥٥) :

فقيسوا قياساتي على البحر كله فلن تجدوا فيها زحافاً ودافع
سوى الضيق والتنفيس هذي وديعتي لديكم فلا تنسن صون الودائع
والا فمن سهو وكاتب زلة ومستعجل لا يتقن العلم جازع
وقوله في السبعية (البيت ٢٩٦) :

ان كان في ألفاظها والقافية ضعفاً ترى فيها المعاني واقية
وقوله في ضريبة الضرائب (البيتان ١٨٨ - ١٨٩) :

فأوسمتها باسم الضرايب أنها حوتها ولو قصّرت في الشعر
فما غرضي في الخير أو في فصاحة ولكن مرادي في الهداية والأجر
وقوله في كنز المعالة (البيت ٥٧) :

والله والله لولا ضيق قافيتي فصلتهن على الأخان تفصيل

ب - معارف أحمد بن ماجد الفلكية :

أما معارف ابن ماجد الفلكية فواسعة جداً . وتطبيقه علم الهيئة في الملاحة رائع . فهو يعرف أسماء الكواكب العربية والمنقولة عن اليونانية وبعض أسماء الكواكب الفارسية . ويبدع في قياس ارتفاع نجوم الهداية بآلة اليد أو الاسطرلاب بدقة أذهلت من قارن بينها وبين قياسات الآلات الحديثة من المستشرقين المعاصرين في فرنسة . وما ذلك الا لأنه اعتمد مبدأ التجريب وتكراره الى أن يحصل على نتيجة لا تتغير . وهو أول من وصف بدقة السحاب الكبرى والصغرى الجنوبية التي يسميها الأوروبيون سحاب ماجلان مع ان ابن ماجد أولى بهذه التسمية .

ج - ثقافة أحمد بن ماجد :

ولا تقتصر معارف ابن ماجد على اللغة العربية وتطبيق علم الهيئة على الملاحة . فمعلوماته الجغرافية تفوق كثيراً معلومات الجغرافيين العرب في البحر والسواحل والموسميات وتفسير هبوب الرياح . ويتحدث عن الدين والتاريخ والجغرافية والأنواء والأدب والأنساب . ويعطي الانطباع بسعة اطلاعه ، اذا صح أنه قرأ ما ذكره من كتب الفلك والكتب الأدبية ، ومنها على سبيل المثال المجسطي وصور الكواكب وزيج البتاني وزيج الوغ بيك . . . في الفلك ، وجمهرة أمثال العرب وبديعيات صفى الدين الحلبي في الأدب . وتثير ثقافة ابن ماجد قضية تعلمه التي يستحيل حلها أو تفسيرها الآن : فأين

تعلم ؟ وهل تتلمذ على أحد مشاهير الشيوخ أو العلماء في حفظ القرآن ودراسة الدين
واللغة والأدب ؟

د - لغات أحمد بن ماجد :

أخيراً ، لا شك أن ابن ماجد يعرف أكثر من لغة ، ويتقن قطعاً الناميلية • وحجتنا قوله
في الفصل الحادي عشر من حاويته (الأبيات ٦٧ - ٧٩) :

قد راح عمري في المطالعات	وكثرة التسال في الجهات
وكم رأيت في خطوط الشول	ونظمه والنثر والفصول
وكم نظرت في حساب العرب	وحسبة للهند مذ كنت صبي
لم أر شيئاً في اتفاق الأصل	في القمر والزنج صحيح النقل

وهذا يعني أنه يتقن لغة الشول ، أي التاميلية ، ويطالع كتبها نثراً وشعراً ، ولا تتسنى
له هذه المطالعة الا اذا كان يجيدها • ويحتمل أن يعرف إحدى اللغات الزنجية ، استنتاجاً
من البيت الرابع السابق ومن البيت ٦٩٣ من السفالية :

عرفتها حتى بقي ربانها يساءلني عنها وعن شعبانها

(وتعود جميع الضمائر «ها» الى سفالة) • الا اذا افترضنا أن ربانته سفالة كانوا
يتفاهمون مع ابن ماجد بواسطة الترجمة • وربما كان يلم بالفارسية أيضاً ، أولاً لأنه
يستعمل أحياناً بعض أسماء الكواكب الفارسية رغم وجود أسماء عربية مقابلة لها ، وترد
هذه الأسماء بكثرة في تصانيفه ، ثانياً لأنه يشرح الألفاظ الفارسية التي تتضمنها نصوصه •

لكن يتساءل الباحث ما اذا كان ابن ماجد يجيد اللغة الزنجية أو الفارسية ، أم
يعرفهما معرفة سطحية اكتسبها من ترده على البنادر • ولا يسع أحداً أن يأتي بالخبر اليقين
بهذا الشأن • ولا بد من انتظار فترة العثور على مصادر جديدة للبت في جميع هذه
النواحي •

ابراهيم الخوري

□ الحواشي :

- ١ - العلوم البحرية عند العرب ، مصنفات سليمان بن أحمد بن سليمان المهري ، الجزء الاول العمدة المهرية في ضبط
العلوم البحرية ، تحقيق ابراهيم خوري ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧٠ •
- ٢ - « غزوات الجراكسة والأتراك في جزيرة العرب المسمى البرق اليمني في الفتح العثماني » ، منشورات دار اليمامة
في الرياض ، ص ١٨ •
- ٣ - مخطوطة ريفان رقم ١٦٤٣ بخط يد المترجم سيدي علي بن الحسين ، ورقة ١ ظهر ، س ١٥ ، وورقة ٣ وجه ،
س ١٢ - ١٣ •
- ٤ - مخطوطة ريفان ، ورقة ٣٣ ظهر ، س ١٢ - ١٤ •
- ٥ - العلوم البحرية عند العرب ، القسم الثاني مصنفات أحمد بن ماجد تحقيق ابراهيم خوري ، الجزء الاول كتاب
الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، ١٩٧١ ، ص ٣٤٤ ، س ٦ - ٨ • انظر
أيضاً : ص ٣٧٣ ، س ٧ - ٨ ، ص ٣٥٧ ، س ٨ - ٩ ، ص ٣٧٤ ، س ٧ - ١٠ ، ص ٣٨٥ ، س ٧ - ١٢ ،
ص ٣٩٣ ، س ١ - ٢ •

٦ - المرجع ذاته ، ص ٣٧٥ ، س ٢ - ٣ .

٧ - المرجع ذاته ، ص ٣٣٥ ، س ٢ - ٤ .

٨ - المرجع ذاته ، ص ٣٨٩ ، س ١ - ٤ .

٩ - المرجع ذاته ، ص ٣٤٣ ، س ٨ - ٩ .

١٠ - كتاب الفوائد ، ص ١٤ ، س ٦ ، وص ١٥ ، س ٢ .

١١ - المرجع ذاته ، ص ١٢٩ ، س ٣ ، وس ٦ .

١٢ - المرجع ذاته ، ص ١٦١ ، س ٦ .

١٣ - المرجع ذاته ، ص ١٥ ، س ٢ - ٣ .

١٤ - المرجع ذاته ، ص ١٨ ، س ٢ .

١٥ - المرجع ذاته ، ص ١٢٩ ، س ٩ - ١١ .

١٦ - المرجع ذاته ، ص ١٦ ، س ١٠ - ص ١٧ ، س ١ .

١٧ - كتاب الفوائد ، ص ٣٧٩ ، س ١٢ - ص ٣٨٠ ، س ٣ .

١٨ - المرجع ذاته ، ص ٣٧٩ ، س ٩ - ١٠ .

١٩ - كتاب العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تأليف الشيخ علي بن الحسن الغزرجي ، تحقيق الشيخ محمد

سيوني عسل ، ١٩١١ ، ص ١١١ - ١١٢ .

٢٠ - تاريخ نغر عدن ، تأليف أبي محمد عبدالله الطيب بن عبدالدين أحمد أبي مغرمة مع نخب من تواريخ ابن المجاور

والجندي والأهدل ، ١٩٣٦ ، ص ٢٠٧ ، س ١٨ .

٢١ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ٦٩ - ٧٠ .

٢٢ - تقويم البلدان ، تأليف عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر المعروف بأبي الفداء ، صاحب حماه ، ص ٨٠ ،

س ٦ - ١٠ .

٢٣ - كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، ص ٣٨٦ ، س ٣ - ٨ .

٢٤ - القصيدة الثائية ، البيت ٥ .

٢٥ - المحيط ، ورقة ٣ وجه ، س ١١ - ١٢ : « ومتاخرين دن ولاية عمانده جلفاردن أحمد بن ماجد » .

٢٦ - حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، ص ٦٣ .

٢٧ - الارشادات الملاحية والرهانجات العربية والبرتغالية المجلد ٣ ، ص ٢٣٥ ، س ٢٥ ، ص ٢٣٦ ، س ٢١ ،

وص ١٩٥ ، وص ١٩٦ ، س ٦ وحاشية ٢ .

٢٨ - كتاب دوارتيه باربوسا ، المجلد الأول ، ص ٧٣ .

٢٩ - حاوية الاختصار في أصول علم البحار ، فصل ٦ ، دير الصين ، ص ٣٥ ، الأبيات ٧٢ - ١٠٤ .

٣٠ - المرجع ذاته ، فصل ٨ ، ص ٤٨ ، بيت ٣٨ .

٣١ - المرجع ذاته ، فصل ١٠ ، ص ٥٨ ، بيت ٦١ .

٣٢ - فيما يلي تواريخ الحملات الصينية وعدد سفن كل واحدة منها :

الحملة الاولى : ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م - ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م - ٣١٧ سفينة .

الحملة الثانية : ٨١٠ هـ / ١٤٠٧ م - ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م - ٢٤٧ سفينة .

الحملة الثالثة : ٨١٢ هـ / ١٤٠٩ م - ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م - ٤٨ سفينة .

الحملة الرابعة : ٨١٦ هـ / ١٤١٣ م - ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م - ٦٣ سفينة .

الحملة الخامسة : ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م - ٨٢٢ هـ / ١٤١٩ م ٠٠٠ ؟؟

الحملة السادسة : ٨٢٥ هـ / ١٤٢١ م - ٨٢٦ هـ / ١٤٢٢ م - ٤١ سفينة .

الحملة السابعة : ٨٣٥ هـ / ١٤٣١ م - ٨٣٧ هـ / ١٤٣٣ م - ١٠٠ سفينة .

٣٣ - كانت السفن الصينية تلفت النظر بعدد أشرعتها الكبيرة الذي يتراوح بين تسعة أشرعة و ٣ حسب حجمها وغايتها .

٣٤ - كتاب الفوائد ، ص ٢٠٢ ، س ٣ - ٥ .

٣٥ - كتاب الفوائد ، ص ٣٤٣ - ٣٤٤ .

٣٦ - البيتان ١١ و ١٢ من ضريبة الضرائب .